الفصل السابع

سيكولوجية الحشد *

بقلم

دانيل كاتز

جامعة ميتشجان

إن سيكولوجية الحشد هى أفضل فصل فى علم النفس الاجتماعى الوصفى . وقد زادت معرفتنا بهذا الموضوع عن طريق ثلاث دراسات رئيسية . فى عام ١٨٩٢ عرض جوستاف ليبون Gustave Le Bon المشكلة بطريقة رائعة [١] ، إذ وصف الطبيعة الانفعالية لرجل الحشد وأوضح ما لقوة الدفع اللاشعورى من خطر . ولكن تفسيره كان متأثراً بنزعته المحافظة وبنقص أدواته التحليلية التى أضعفته . وفى تفسير مارتن Everett Dean Martin عام ١٩٢٤ لسلوك الحشد ، أدخل هذا الباحث تحسيناً على الوصف السابق ؛ وذلك بأن طبق سيكولوجية فرويد على رجل الحشد [٢] . وفى عام ١٩٢٤ أضاف أولبورت Floyd H. Allport أحسن تحليل لميكانيزم سلوك الحشد [٣] . ولقد نجح كل من مارتن وأولبورت فى رد مشكلة سيكولوجية الحشد إلى مشكلة سلوك الفرد بتأثير أنواع خاصة من الدوافع .

ويميل هؤلاء الكتاب إلى أن يجعلوا كل أنواع الحشود متشابهة فى أساسها ، متأثرين فى ذلك بالمميزات العامة لسلوك الحشد كالقابلية للإيحاء والتعصب والانفعالية . وقد أهملوا الاختلافات بين الجماعات الثائرة ، ومظاهرات الطلبة ، وحالات الرعب الجمعى ، والمحاكمات اللانشية على الحدود ** ، والجماعات التى

---

* قام بترجمة هذا الفصل الدكتور مختار حمزة .

** انظر هامش ص ٢٩٦ .

تعمها البهجة أثناء الاحتفالات كتلك التى عمت العالم يوم النصر . وقبل أن نبحث فى مآخذ الفكرة القديمة التى ترى وضع كل سلوك الحشد فى طبقة واحدة ، ينبغى أن نفحص بعناية نظريات وملاحظات كل من ليبون ، ومارتن ، وأولبورت .

تفسير ليبون :

إن الحشد كما عرفه ليبون ليس مجرد جمع من الناس ، بل هو جمع يفترض فيه وجود حالة عقلية معينة . إن سلوك الحشد يظهر خواص جديدة مختلفة كل الاختلاف عن سلوك الأفراد الذين يتكون منهم الحشد حينما يكونون فرادى ، فيختفى شعور الفرد بذاته . فهو وسط الجماعة لا يفكر فى نفسه على أنه زيد أو عمرو . « إن عواطف جميع الأشخاص وأفكارهم عندما يكونون مجتمعين تأخذ اتجاهاً واحداً مشتركا » وعندئذ يتكون عقل جمعى . ويتألف هذا العقل الجمعى من الرغبات اللاشعورية المشتركة بين جميع أفراد الجنس . فقدرات الفرد ومميزات الناس الشخصية الفريدة تكون فى حالة تعطل مؤقت ، حيث يحل محلها تلك العوامل اللاشعورية الدفينة . وهذا يفسر لنا قصور الحشد من الناحية العقلية ، وعدم مقدرته على أداء أعمال تتطلب درجة عالية من الذكاء .

والفرد الذى يكبح عادة جماح رغباته اللاشعورية ونزعاته الغريزية ، يتأثر فى موقف الحشد بالشعور بالقوة التى ينفثها فيه الأفراد من حوله لدرجة تجعله يخضع للاشعوره . وحينئذ يختفى شعوره بالمسئولية ومما يزيد استسلامه للدوافع البدائية القابلية للإيحاء التى تسود الحشد وعدوى التمثيل بالآخرين . فالفرد فى الحشد يسلك كما لو كان منوماً تنويماً مغناطيسياً . ويفسر لنا انطلاق الرغبات اللاشعورية توحش الشخص وتحمسه وعنفه عندما يضمه موقف الحشد .

فالصفات المميزة لرجل الحشد هى :

١ — التطرف فى سرعة التصديق مما يمهد السبيل إلى خلق الأساطير وشيوعها .

٢ — نوع من التفكير المندفع الصارم المتطرف الذى يغفل العناصر المميزة ويرى الأشياء إما بيضاء أو سوداء .

٣ – التعصب وعدم إفساح المجال للمعارضة أو المناقشة .

٤ – تغلب روح السيطرة ، ووجود صفة التناقض ؛ فإما خضوع أعمى للقوة أو سيطرة مستبدة على الضعيف .

٥ – انعدام الحس الخلقى فى صورة القمع المستمر للدوافع الأنانية إلى جانب مبالغة فى النواحى الخلقية فى بعض المناسبات عن طريق إظهار التضحية والولاء الشديد .

ولقدعمم ليبون فكرته عن عقلية الحشد بحيث تتضمن أكثر من مجرد مقابلات الأفراد وجهاً لوجه داخل الجماعة . فالناس حتى ولو لم يوجدوا بعضهم مع بعض ؛ يسرى بينهم الإيحاء ، وعدوى التماثل ، ويظهرون نفس خواص الجماعات التى يتقابل أفرادها وجهاً لوجه ، ويعانون الحالة الذهنية نفسها الخاصة بهذه الفئة الأخيرة .

وقد عيب على وصف ليبون صبغته الأدبية مما أدى إلى المبالغة فى إبراز أثر العقل الجمعى . وإنه وإن كان قد عبر عن رأيه بطريقة مجازية بليغة . إلاّ أن وصفه لموقف الحشد لم يكن دقيقا . وبذلك انتقل اهتمام الكتاب الشعبيين الذين جاءوا بعده ، من العناية بأعضاء الحشد إلى التحدث عن قوة غامضة .

ولقد ساير ليبون الاعتقاد الشائع فى زمانه ، فطابق بين الرغبات اللاشعورية لأعضاء الجماعة والتراث العنصرى المشترك بينهم . وليس هناك دليل لتقرير فكرة اللاشعور العنصرى أو فكرة النماذج البدائية أو archetype تبعاً لنظرية يونج Jung . إلاّ أن ليبون قد أبدى ملاحظات ممتازة خلال وصفه للمظاهر الانفعالية لسلوك الحشد ، كما أظهر بصيرة نافذة فى قوله : إن الحشد يهيئ الوسائل لانطلاق الرغبات اللاشعورية المكبوتة .

نظرية مارتن فى سلوك الحشد :

إن مارتن اعتمد كثيراً فى نظريته على بحث ليبون الأساسى حيث وصل

إلى أن الحشد هو موقف خاص لانطلاق الرغبات اللاشعورية . وقد أفاد مارتن مما وصلت إليه سيكولوجية فرويد من تقدم ، فاستخلص الخصائص المميزة لتأثير هذا النوع من دوافع السلوك الحشدى . وقد عرف مارتن الحشد ، شأنه فى ذلك شأن ليبون كحالة ذهنية معينة قد تؤثر فى الجماعة ، ولكنه يختلف عن ليبون فى أنه لم يعتبر هذه الحالة كعقل جمعى . بدلا من ذلك فإنه وجه الاهتمام إلى انطلاق مكبوتات مشتركة « لأن أفكاراً ضابطة معينة توقفت عن أداء وظيفتها فى البيئة الاجتماعية المباشرة . » ومن أمثلة هذه الأفكار الضابطة الاعتقاد فى قدسية الحياة البشرية . والاعتقاد بأن الاعتداء الشخصى عن طريق الضرب وما شابهه تصرّف لا يصدر إلاّ من شخص سافل ، والاعتقاد بأنه من الخطأ تدمير ممتلكات الغير إلخ ... فدراسة سلوك الحشد تتجه إذاً إلى دراسة مشكلتين :

١ — كيف يحدث أن الرغبات المشتركة بين الأفراد يمكن كفها إلى حين.

٢ — وما هى طبيعة سلوك الحشد إذا ما تكون الحشد ؟

والنظرية التى تقول : إن الحشد يمثل تعديلا للبيئة الاجتماعية يمكن الرغبات البدائية من الإفلات من الرقيب أو الذات العليا ، لا تزال فى حاجة إلى أن تفسر أصل الحشد أو تكوينه . فإذا سلمنا بأن الرغبات اللاشعورية يمكن أن تجد لها تعبيراً حينما يعترى المعايير الاجتماعية الضابطة بعض التراخى ، فكيف يحدث هذا التراخى للأفكار الضابطة ؟ إن وجود المعايير الاجتماعية ليس وجوداً مجرداً ، فهى الاتجاهات السائدة للناس فى الجماعة . فكيف يتسنى لكل فرد أن يعرف أن من حوله سوف لا يرضون عن سلوك يُنظر إليه عادة على أنه غير اجتماعى ؟

إن وصف مارتن لتكوين الحشد هو أن تعديل البيئة الاجتماعية المباشرة ينتج عن إذعان متبادل بين الأشخاص الذين تتنكر دوافعهم اللاشعورية لعمل شىء ممنوع فى صورة عواطف تفوز بالموافقة الخلقية . وهذا يتم بوساطة قائد الحشد الذى يوجه انتباه أعضاء الحشد للمعايير الخلقية العامة والمجردة . هذه العموميات الانفعالية هى صورة تنكرية ، ولكنها فى الواقع رموز لمعان غير مدركة

وهى تعمل كنظام مغلق مثل منطق المصاب بالبارانويا ، لكى تسمح للناس بالتصرف بتوجيه دوافعهم المكبوتة .

ويفترض مارتن أن هناك صراعاً أساسيًّا بين السلوك العادى المقبول اجتماعيًّا ورغبات الفرد البدائية الأنانية . ويؤدى هذا الصراع إلى ذُهان حينما يسلك الفرد طريقاً منعزلا لحل الموقف . ويقول مارتن : « هناك طريق آخر مفتوح ، وهو التوفيق من آن لآخر . بين مطالبنا المتبادلة فيما بيننا» . وموقف الحشد هو الذى يمدنا بهذا الطريق ، وذلك عن طريق التعديل اللاشعورى لدلالة المعايير الاجتماعية .

وعلى ذلك ، فطبيعة سلوك الجماعة فى جوهره يشابه سلوك المصاب بالذهان ، ولكنه غير مطابق له . فأفراد الحشد لا يتغاضون عن العالم الواقعى كما يفعل الشخص غير العاقل ، نظراً لأنهم يتكيفون أحدهم للآخر لكى يحققوا غرضهم . ومع ذلك ، فإن عضو الحشد ، يرضى أنانيته بأسلوب المصاب بجنون العظمة ، وذلك بمجرد استبدال مدحه لذاته بعبادة الحشد الذى يضمه . ففى الاحتفال الدينى ، نجد أن الشخص المقامر ، والسكير ، والعيار ، والضعيف ، والفاشل ، هؤلاء جميعاً يتحول كل واحد منهم إلى الشخص الممتاز ، الخطير ، المفتدى ، ومهبط الحب الإلهى . وفى كثير من الحشود نجد أن القادة أبطال ومخلصون يتميزون بقوى غامضة يشاركهم فيها أعضاء الحشد بطريقة لاشعورية .

إن جنون العظمة فى الحشد يكمله جنون الاضطهاد ، مما يجعل من الحشد مخلوقاً مجبولاً على البغضاء . فهو يمجد الظلم الذى قاسى منه أفراده ، ويجد موضوعاً ينطلق نحوه ما يعتلج فيه من بغض . فالرعاع فى الجنوب ينقضون على الزنوج ، ويقتلون ضحيتهم البريئة ، مسوغين ذلك بأن الزنجى كان يهدد سلطان البيض .

وكثيراً ما تتحول الجماعات التى بدأت بحشد هادئ إلى جماعات من الرعاع والسفاكين . فالمظاهرات فى المباريات الرياضية التى تبدو فى مبدأ الأمر كتعبير عن فيض من الحماسة تنتهى أحياناً بالعنف والتخريب . وتفسير مارتن هو

أن العداء والسيادة التى كبتت أحقاباً طويلة ، تجد الفرصة للانطلاق حينما يشعر الناس فى موقف الحشد بتراخى الضوابط الاجتماعية لدى الجميع .

وكما فى تفسير ليبون ، يرى مارتن الحشد متطرفاً وصارماً فى تفكيره . فالنظم المثالية الجامدة تحل محل الذكاء المميز . ولا توجد بالنسبة للحشد مشاكل تتطلب التفكير لحلها . بل بدلا من ذلك نجد حقائق مطلقة ، وأنظمة مغلقة لمجردات مثالية ، وخضوع لمعتقدات شبيهة بالمعتقدات الدينية .

وعلى الرغم من التشابه العظيم بين ليبون ومارتن فى تمييزهما لسلوك الحشد ، فإن مارتن قد نجح فى تحويل التأكيد من عقل الحشد كوظيفة للاشعور العنصرى إلى سيكولوجية الفرد وما يتنازعها من صراع بين الروادع الاجتماعية والرغبات الأنانية . ويترتب على نظرية مارتن ، أنه كلما زاد الكبت ، وزاد تنظيم الناس أثناء تهيئتهم لحياة اجتماعية معينة ، زادت الاحتمالات فى أن يسلكوا فيما بعد سلوكاً حشديا . ويمكن أن نأخذ على تحليل مارتن الأمرين الآتيين : فهو يركز اهتمامه فى الدفع اللاشعورى لرجل الحشد ، ويفشل فى وصف الظروف التى يحدث فيها سلوك الحشد وصفاً كافياً . ثم إنه فى تفسيره لتكوين الحشد مع التسليم المتبادل بالمعايير الاجتماعية عن طريق الاهتمام بالمبادئ المجردة والعامة لم يوضح إطلاقاً كيف أن الناس وهم لا يدركون دوافعهم الخاصة يمكنهم أن يحسوا بطريقة تحت شعورية برغبة مماثلة عند الآخرين مما يؤدى بهم فى الوقت نفسه إلى تراخ فى جانب الذات العليا فى شخصياتهم .

تحليل أولبورت :

إن مارتن فى وصفه للحشد قد استغل التطورات فى علم نفس الشواذ منذ وقت ليبون ، ولكنه حصر نفسه فى نطاق ضيق وهو سيكولوچية فرويد . أما أولبورت فقد أفاد من علم النفس الاجتماعى ، وعلم نفس الشواذ ، وبذلك فإنه أسهم بتفسير أوسع كثيراً . ويمكن تلخيص رأيه فى سبع نقط رئيسية :

١ ــ جماعات الحشد هى جماعات كفاح من نوع أولى أو عنيف أحبطت دوافعهم الأساسية ، أو أصبحت عرضة للتهديد . لقد عُرقل أو هُدد التعبير الحر لحاجات أعضاء الحشد ورغباتهم ، فاتخذت خطوات جمعية لتمهيد السبيل إلى إرضاء هذه الدوافع . ويفترض أولبورت ، شأنه فى ذلك شأن مكدوجال أن كبح الفرد أو ردعه هو المنبه الملائم للكفاح . والتفسير الحديث لهذا المبدأ يُعرف بفرض الإحباط والعدوان . وهذا الفرض عادة يفترض فى حالة إحباط الناس أو تهديدهم بالحرمان حدوث العدوان ضد من يقوم مقام كبش الفداء . ولا يقتصر دور الاعتداء فى نظرية أولبورت على هذا النوع . ولكن النظرية تميل إلى تأكيد الطبيعة الواقعية للاستجابة الخاصة بالكفاح الجمعى . وعلى هذا فالجماعة التى تعتدى على شخص مصاب بالهوس الجنسى ، قد تكون بعملها هذا تتحدى القانون ، ولكن رد فعل الأعضاء موجه ضد خطر واقعى يهدد أسرهم . إن الفكرة المسيطرة فى وصف مارتن هى المكبوتات اللاشعورية التى تنطلق فى سلوك الحشد ، ولكن فى عرض أولبورت نجد أن القوى الدافعة قد تكون دوافع شعورية أو رغبات لاشعورية .

٢ ــ إن سلوك الحشد هو فى أساسه صورة مضخمة لسلوك الفرد . « فالفرد فى التجمهر يسلك كما لو كان بمفرده ، ولكن بصورة مبالغ فيها . » فالفرد لا يسيطر عليه عقل جمعى ينقله بطريقة غامضة من إنسان مهذب إلى وحش فظ . بل التفسير الأفضل أن نقول : إن سلوك الفرد ودوافعه الأساسية تزداد شدة فى موقف التجمهر .

فالجماعات الحاشدة التى أحاطت بالباستيل أثناء الثورة الفرنسية تضمنت أناساً وقع عليهم الظلم ، ولهم أصدقاء وأقارب من المسجونين . فهم حينئذ كانوا يفعلون علناً ما كانوا دائماً يرغبون فى عمله .

٣ ــ التسهيل أو التيسير الاجتماعى ميكانيزم هام فى سلوك الحشد . فقائد الحشد المحنك يعرف أهمية السلوك المعبِّر ، فهو يعتمد على إثارة الانفعالات ، ويحصل على استجابات عامة علنية بجعله الجماعة تصفق وتقف معاً وتغنى معاً إلخ . . .

فهو يجمعهم بحيث تلتصق أجسامهم بعضها ببعض . وعلى ذلك فوجود الفرد مع كثيرين غيره ممن يعملون الشيء نفسه الذى يعمله ، يجعله يتحمس ، فتزداد استجاباته شدة . وهذا التيسير الاجتماعى يؤدى إلى تكوين حلقة دائرية ، إذ كلما كان الشخص أكثر عنفاً فى تصفيقه أو ضحكه ، أثار هذا من حوله ، وازداد أثر هؤلاء بدورهم فى إثارته . ويتضح هذا المبدأ جلياً فى المتفرجين أو المستمعين فى الاستديو ، وهم الذين يستفاد بهم فى الإذاعات الكبرى ، وهذا أيضاً من الأسباب التى تجعل الراديو يحتاج إلى متفرجين فى الاستديو .

٤ ــ الحضور المادى لآخرين يستجيبون فى وحدة يخلق شعوراً بالعمومية . فإذا كنا مع جماعة من المتفرجين ، وصفق الناس حولنا بشدة لفكرة ما ، فإنه يبدو أن هذه الفكرة تمثل رأى كل واحد . والعالم الواقعى الذى يشمل ملايين الأفراد الذين ينبغى أن نأخذهم فى اعتبارنا فيما يتعلق بالمشكلة لا يكون لهم أهمية المئات القليلة التى نراها ونسمعها من حولنا فى الحشد .

٥ ــ الحشد هو ظاهرة إيحائية واسعة المدى . إن الإثارة التى نتلقاها بحضور الكثيرين من زملائنا تميل إلى زيادة النشاط الجهرى ، ولكنها تعوق الاستجابات الفكرية الضمنية . وقمع التفكير النقدى هو ظرف يساعد على الإيحاء إلى أقصى حد . فالفرد وهو مدفوع بدوافع أساسية سبق أن قهرت ، سيقبل أى طريقة يوحى إليه للعمل بها إذا كان هناك أمل يرجى من ورائها .

٦ ــ يظهر أثر الإسقاط الاجتماعى فى موقف الحشد ، وخاصة فى المراحل الأولى .

فنحن لا نتمشى فقط مع اقتراحات قائد الحشد والسلوك المعبر لمن حولنا ، ولكننا أيضاً نسقط أفكارنا ومشاعرنا الخاصة على غيرنا من الناس . ونفسر قابليتهم العامة للاستجابة كتحويل لما نريد نحن أن نفعله ، وهذا هام جداً فى تكوين الحشد ، ويساعد على تفسير التراخى المشترك للمعايير الاجتماعية ، والذى من شأنه مساعدة الرغبات المدفونة على الانطلاق والظهور .

٧ — إن الحشد يتيح فرصة غير عادية لحل الصراعات الفردية .

إن الدوافع الاجتماعية ذات أثر ضابط على الرغبات الأنانية والرغبات البدائية ، كما أشار مارتن. ويؤدى وجود أناس آخرين إلى تدعيم الرغبات الاجتماعية. فنحن كأطفال نتعلم أن نقمع ردود أفعالنا الهمجية العدائية عن طريق ما يوقع علينا من عقاب أو استهجان من الآخرين . وعلمنا بأن الآخرين يلاحظوننا أو سيستكشفون ما قد نفعله ، يعتبر ضابطاً هامًّا لنا . ولكن فى موقف التجمهر ، يتخذ حضور أناس آخرين معنى مختلفاً تماما . فبدلا من أن يكون رقيباً ورادعاً لرغباتنا الأنانية ، فإن تجمع الناس فى الحشد يعمل على انطلاق هذه الرغبات وتيسيرها . ومثل هذا مثل طفل كانت أمه دائماً تعاقبه حينما يهاجم طفلا آخر ، ولكنه الآن يجد استحسانا من أمه لهذا التعدى . هذا الحل المؤقت للقوى المتصارعة داخل الفرد ينظم كلتا المجموعتين من القوى على جانب واحد ، ويفسر لنا ما للدوافع الحشد من قوة مرعبة . ويصبح من المقبول الآن اجتماعيًّا أن نقوم بأفعال كنا نرغب فى عملها من قبل لولا الأثر الرادع للرأى العام . ولقد استغل النازيون هذا الدافع بمهارة ، فجعلوا من الناس الذين أظهروا وحشيتهم وفظاظتهم أبطالا .

هذا المبدأ لسلوك الحشد يعتبر أهم أساس لتفسير خاصيته المميزة . ولقد اقترحه مارتن ، ولكن أولبورت هو الذى وضعه فى هذه الصيغة الأكثر دقة . وهو يعارض بعض الشىء مبدأ أولبورت فى أن سلوك الفرد فى الحشد يتصف بالمبالغة والتضخيم . إن هذا المبدأ الأخير يعلل فقط شدة السلوك من الناحية الكمية ، ولا يسمح بتغيرات فى الكيفية ، ولكن حل الصراع يقتضى تحول الاستجابة تحولا كيفيًّا .

وإن عدم التوافق الذى قد يبدو فى نظرية أولبورت يرجع إلى ميله لمعالجة أنواع مختلفة من الحشد ، وأنواع متباينة من الدوافع داخل الحشد كما لو كانت جميعها متماثلة .

ثلاثة نماذج للحشد

على الرغم من أننا قد نجد كثيراً من الميكانيزمات نفسها فى كل أنواع الجمهرة ، فإنها تؤدى إلى نتائج مختلفة تعتمد على الأساس الدفعى والموقف الاجتماعى الكلى . ولم تحظ نماذج الحشد المتنوعة بقدر كاف من الاهتمام . وعلى الأقل يمكن تمييز ثلاثة نماذج للحشد : حشد الطائفة Community crowd ، والحشد المتعصب fanatic crowd ، والحشد الطبقى Class crowd .

حشد الطائفة :

فى فجر التاريخ الأمريكى ، واليوم أيضاً فى الجهات الريفية التى لم تتقدم تقدماً كافياً ، نجد حشد الطائفة الذى يحكمه قانون لينش * Lynch Law . فلصوص الماشية والخيول وسارقو البنوك والمطالبون بحقوقهم كانوا جميعاً يخضعون لعدالة قانون الحشد . وعلى ذلك فالمقامرون والسكارى وغيرهم من الأفراد المنحلى الأخلاق كان يحكم عليهم بأحكام قاسية أو يرغمون على الخروج من البلد مطرودين . فى هذه الحالات نجد أن المجتمع الصغير يشترك أفراده فى فرض مبادئ خلقية يشعرون بها معاً بدلا من إهمالها . فالحشد الطائفى يعمل على حماية المعايير الاجتماعية القائمة .

الحشد المتعصب :

إن الجمهور المتعصب الذى يظهر فى الجماعات المتقدمة اقتصادياً يختلف

(*) شارلز لنش Ch. Lynch (١٧٣٦–١٧٩٦) أحد قادة الثورة فى مقاطعة فرجينيا ، وضع نظاماً سريعاً لمحاكمة أعدائه ، واشتراك الشعب فى تنفيذ العقوبة. يطلق لفظ Lynching على الحالات التى يثأر فيها الشعب لنفسه دون الالتجاء إلى السلطات القانونية لمحاكمة المذنب . (المترجم)

عن النوع السابق الذى يحكمه قانون لينش . ومعظم الأفراد فى هذا الحشد المتعصب يسعون وراء نوع من التعبير الذاتى قد يكون مستقلا تماما عن أى شعور طائفى . فجمهور المغنى فرانك سيناترا قد أظهر كل ما يدل على سلوك الحشد ، ولكن الانفعال لم يتجه بأى حال نحو عناصر ضارة بحياة الجماعة .

الحشد الطبقى :

إن الحشد الطبقى من الناحية الأخرى هو جماعة كفاح ، لا ميل لها نحو حماية القواعد الخلقية للطائفة ، ويتجه أعضاؤها إلى استكشاف المسوغات وغيرها من الدوافع التى تمكنهم من التخلى عن الاتجاهات التقليدية فى سبيل اعتقادات أكثر عمقا قد كبتت طويلا . والحشد الطبقى من الناحية الموضوعية يهدد الدولة ويهدد مبادئ القانون والنظام التى تفيد منها الجماعات الأخرى .

ميكانيزمات الحشد :

ومع ذلك فنفس ميكانيزم الحشد هو الذى يؤدى إلى هذه النتائج الثلاث المختلفة . ولقد فشل معظم المؤلفين فى إدراك هذه الحقيقة . وكنتيجة لذلك اعتبرت الثورة الفرنسية — التى كانت نتيجة لنظام الطبقات ، وتضمنت القضاء على النظام الإقطاعى — كما لو كانت مماثلة لبعث دينى أو لمظاهرة غوغاء . على أى حال ، فكل نوع من الحشود يتضمن عناصر مختلفة . ومشكلة الحشد الطائفى هى مشكلة أفراد لهم نظام موضوع من السلوك أساسى للغاية ، ويعرضه للخطر سلوك الناس الآخرين . إن الجريمة الجنسية تعد مصدر تهديد لكل مواطن متمسك بالقانون فى نظام حياته الخاص . ولص الماشية الذى يسرق قطعان شخص آخر قد يتحول إلى قطعانك فى أى وقت .

وإن مشكلة الجمهور المتعصب ، على أى حال ، هى مشكلة العثور على طريق جديدة مشتركة للتعبير عن كل أنواع الرغبات المكبوتة . وطرق التعبير

الجديدة هى بمثابة صمام الأمان لتحرير الرغبات المكبوتة . وأعضاء هذا الحشد عند فوزهم بهذا التحرر لا يشنون حرباً ضد المجتمع أو ضد أعداء المجتمع . فالمسألة هى مجرد السعى للتخلص من كثير من الاتجاهات الاجتماعية السائدة فى ثقافتهم . وهم لا يريدون التخلص من هذه الاتجاهات كلية ، ولكنهم يريدون أن ينسوا ولو لحظة وجود مثل هذه القيم . وعلى ذلك ، فهذا الحشد المتعصب يتصف بالحماقة والانطلاق والانحراف والتحمس والغرور ، ولكنه ليس بالثورى .

وأما الحشد الطبقى ، فإنه يخلق مواقف ثورية فى مضمونها ، والظواهر التى ينطوى عليها الحشد الطبقى مثل الظواهر التى ينطوى عليها الحشد المتعصب قائمة على رغبات ردعت . والعامل الرئيسى الذى يؤدى إلى الكبت فى حالة الحشد المتعصب هو النظام التقليدى للسلوك المتأصل فى أعضاء الحشد المتعصب أنفسهم . ولكن العامل الرئيسى الذى يؤدى إلى الكبت فى حالة الحشد الطبقى هو القوة المنظمة لسلطة البوليس فى الدولة . وفى حالة الجمهور المتعصب يثور الأفراد ضد أنفسهم أما فى حالة الحشد الطبقى ، فإن الأفراد يثورون ضد أعدائهم الخارجين .

تكوين الحشد

نظراً إلى أن الحشد المتعصب أبطأ فى التكوين من حشد الطائفة أو الحشد الطبقى ، فإنه يُهيئ لنا فرصة أحسن لدراسة الميكانيزمات الأولية لتكوين الحشد . إن حادثة بارزة كخطف طفل أو سوء معاملته ، سرعان ما تؤدى بوجه عام إلى تكوين الحشد الطائفى . ويؤدى أثر الظرف المثير إلى تغيرات مثيرة مفاجئة فى الأفراد الذين يكونون الحشد ، وإنه لمن الصعب أن نتعقب النمو السيكولوجى لعملية الحشد هنا . أما فى حالة الجمهور المتعصب ، فإنه يمكن ، على أى حال ، ملاحظة تكونه حيث يبدأ خطيب مفوه بتناول اتجاهات الأفراد العادية اليومية ، وبنهاية خطبته يشعل فى مستمعه أوار الانفعال الحشدى . هذا الموقف

للجمهور المستمع يتيح لنا فرصة طيبة لملاحظة كل مرحلة من مراحل نمو التجمهر بالتفصيل .

الاستقطاب :

يعتمد سلوك الحشد على خلق مايسميه وولبرت Woolbert جمهور مستقطب (٤) هذا الاستقطاب يمثل حالة يكون فيها أفراد الجمع متأثرين تماماً بكلمات الخطيب وحركاته وانتباههم مركزا فى المتكلم . وفى حالة الحشد الطائفى وكذلك الحشد الطبقى ، يكون الاستقطاب أو الاستحواذ على أعضاء الحشد عملية سهلة بالنسبة لأى متكلم يمثل هدف أعضاء الحشد ، لأن حشد الطائفة أو الحشد الطبقى يعتبر كل منهما جماعة منتخبة . فهى تضم فقط أولئك الأفراد الذين يكونون قد هيئوا مقدماً لأداء عمل غير عادى . على أى حال ، لكى يعمل الخطيب على تحويل جماعة المستمعين إلى جماعة متحمسة ، فإنه يجب أن يعمل على جذبهم بأن يستعمل بعناية الأساليب الآتية :

١ ــ يحاول المتحدث أن يزيل كل ما من شأنه تشتيت الانتباه .

من الواضح أنه ليس فى قدرة المتكلم أن يتحكم تماماً فى جميع المثيرات ، وإن كان الكثير منها تحت سيطرته ، ليس فى استطاعته أن يمنع الأفراد من أكل وجبات دسمة ، ولكن يمكنه أن يتحكم فى الحرارة والضوء وأسباب الراحة داخل مكان الخطان . فى استطاعته ألا يجعل فى مظهره شيئاً ينفر من رسالته ، (من أشياء متألقة ، وحركات تشتت الانتباه أو مشية عصبية تسبب الضيق) ، يمكنه أن يطلب من الناس أن يبتعدوا عن منصة الخطابة (ما دام وجودهم لا يأتى بأية فائدة) . أما العوامل التى لا يمكنه أن يتحكم فيها ، فينبغى أن يبعدها بالإيحاء ، وخاصة إذا كانت من العناصر التى تعمل حقيقة على تشتت الانتباه . ومن الواضح أن القاطرة التى تصفر أو عربة الحريق المارة فى الطريق أو غيرها من المثيرات التى لا يمكن التحكم فيها ، لا يمكن إبعادها . ولكن الخطيب الناجح

الذى له خبرة بمثل هذه المواقف ، يستطيع أن ينسج هذه المثيرات فى خطبته ، فتصبح جزءاً من نظام الإثارة بدلا من أن تؤدى إلى مقاومة الانتباه .

٢ ــ يستعمل المتكلم وسائل ذات قيمة كبيرة فى جذب الانتباه .

إن خطيب الجماهير يجب أيضاً أن يعرف وسائل ذات قيمة تنبيهية عليا . فيدخل فى خطبته عوامل الصراع ، والاهتمام البشرى ، ويترك بعض المسائل معلقة ، ويعطى للبعض الآخر حلولا ، كما يهتم بجانب الفكاهة والجدة ، ويستغل الأساليب الحيوية ، والتى منها أن الحوادث القريبة أكثر حيوية من الأحداث البعيدة . وأن السلوك المتكرر له أثر أعمق من الأحداث التى تمر عرضا . وأن الخبرات الانفعالية ذات أثر فعال أكثر من الخبرات غير الانفعالية . كما

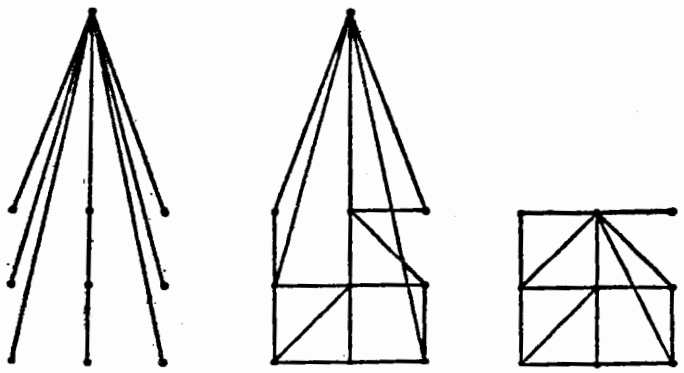

(شكل ١٣) توضيح ثلاث مراحل لنمو الاستقطاب

١ ــ الجماعة غير مستقطبة . انتباه المستمعين موزع فى مختلف الجهات ، والزعيم لم يظهر بعد .

٢ ــ الجماعة مستقطبة جزئيا . معظم أفراد الجماعة يشعرون جزئيا بجيرانهم ، وإن كان انتباههم موجهاً إلى الزعيم .

٣ ــ الاستقطاب تام ، فالجميع يركزون انتباههم فى الزعيم . ويكاد الواحد منهم لا يشعر بجيرانه أو أنه لا يشعر بهم إطلاقاً . وهذا المستوى عادة لا يدوم طويلا . (مقتبس بشىء من التعديل) من :
C.H. Woolbert, "The Audience", Psychology Monograph, 1916, vol. 21).

أنه يدرك أن تأثير المحسوس أقوى من المجرد ، والخاص من العام ، والموضح بالصور من دونه . ويدرك كذلك المبدأ القائل بأن الالتجاء إلى كثير من

الحواس أفضل من الالتجاء إلى حاسة واحدة فقط .

فإذا كان قادراً فى هذه النواحى ، فإنه سرعان ما يستحوذ على انتباه مستمعيه. وقد اقترح وولبرت Woolbert عملية نمو الاستقطاب فى مراحل، كما فى (شكل ١٣) .

وبالإضافة إلى قدرة المتكلم ، فقد اقترح جرنى Gurnee أن هناك خواص معينة للمستمعين تسهم فى هذه العملية وهى :

(ا) القابلية العامة للاستقبال — يأتى أغلب المستمعين ولديهم الاستعداد لسماع المتكلم ، ولكن بعض المستمعين قد يكونون غير مكترثين أو عدائيين . وفى هذه الحالة الأخيرة يجد المتكلم نفسه إزاء مهمة عسيرة ، ويجب أن يقدم مادة تستحوذ على اهتمامهم .

(ب) التجانس العقلى — وفى ذلك يشير Gurnee إلى أن الأفراد المختلفين فى السن والميول والتحيزات إلخ ، يكوّنون جمهوراً صعبًا (٥) ، أما الجمهور المتجانس ، فمن الواضح أن توحيده يكون أسهل .

(حـ) تدريب الجمهور — إن الجماهير ذات الخبرة من السهل التعامل معها لأنها تكون قد كونت استجابات مناسبة تساعد المتكلم .

٣ — الاستقطاب يسهله اشتراك الجماعة .

إن المستمعين أو المتفرجين المنجذبين لا يكوّنون على أى حال جمهوراً . فالجمهور لا يوجد إلا إذا طغى الانفعال على المستمعين ، وازدادت كلمات المتكلم قوة بمساهمة مايصدر من أعضاء الجماعة من منبهات . ومن المسلم به أن المستمعين المستغرقين فى الانتباه أكثر قابلية للإيحاء من مستمعين أقل انتباها . ونحن نتذكر من وصف الإيحاء فى الفصل السابق أن الإيحاء يشمل تضييقاً لمجال الشعور . وطرق الاستحواذ على الانتباه ، وإزالة ما يعوق الانتباه هى بطبيعتها طرق لتحديد مجال الشعور . ومن ثم فهى كذلك طرق لزيادة القابلية للإيحاء .

والتيسير الاجتماعى للاستقطاب هو حالة الانتباه الشديد من الأعضاء

والمستمعين للمتكلم ، وتزداد فيها قابلية الأعضاء للإيحاء بمعاونة الإثارة الصادرة من أعضاء آخرين من المستمعين . فالأمر كما لو كان الأعضاء المستمعون قد أصبحوا جزءاً من نفس مجال الإثارة الذى يكون المتكلم موضوعاً مسيطراً فيه . فالمنبهات المعاونة هى الظهير أو الخلفية التى تسنده وتعاونه .

٤ ــ أثر العمومية Universality ــ إن أثر العمومية من العناصر الهامة فى سلوك الحشد . فكما يزول الانفعال ببطء ، فإن السلوك المعبر غالباً ما يبقى مدة أطول بعد اختفاء المؤثر المغرى ، والمتكلم اللمّاح يمكنه أن يستغل هذه اللحظة السيكولوجية . فبينما لا يزال المستمعون يصفقون لعبارة ما قالها المتكلم ، فإنه يستطيع أن يقدم فكرة أخرى لا تكون عادة مقبولة ، ونظراً لبقاء السلوك المعبر مدة أطول ، فإن الفرد حينما ينظر حوله يرى رضاً واقتناعاً على كل وجه . فالمستمعون كانوا سابقاً متفقين مع المتكلم ، ويبدو أنهم ما يزالون متفقين معه . فإذا أضفنا هذه الحالة إلى ارتفاع درجة القابلية للإيحاء ، أصبح لدينا أساس قبول أى اقتراح كان يرفض فى ظروف أخرى . فإذا ما عرضت هذه الفكرة المقبولة أمام الجموع وحازت القبول والاستحسان الظاهر ، فإنها تصبح اقتراحا لا يمكن أن نتوقع أن يرفضه الفرد .

٥ ــ الالتجاء لوسائل أخرى لزيادة القابلية للإيحاء بين المستمعين .

هناك ظروف أخرى تساعد على زيادة القابلية للإيحاء بين الأعضاء المستمعين . إن خطيب الجمهور يجب أن يكون طلقاً . قد تكون لغته ضعيفة ، ونطقه غير صحيح ، وتكوين جمله خاطئاً ، ولكن كلماته يجب أن تنطلق كالشلال . وهذا يعطى للكلام إيقاعاً معيناً يجعل له أثراً خاصًّا . كذلك التكرار يؤثر فى ازدياد القابلية للإيحاء . وينبغى أن تتخذ عملية زيادة القابلية للإيحاء صورة الرسم البيانى لحركة البورصة التجارية ، فالمتكلم يسير مع المستمعين مسافة محدودة ثم يعطيهم فرصة للراحة قليلا والاستسلام للانفعال . ولكن من كل واد يرتفع بهم إلى قمة أعلى . فمن الصعب جدًّا أن نسير بجمهور من المستمعين من الجمود اليومى العادى إلى درجة عالية من الانفعال بدون فترات راحة .

أثر الميكانيزمات فى جماعات الحشد

من الممكن الآن أن نطبق هذا الوصف للحشد على الأنواع المختلفة للجمهرة. فحشد الطائفة يمر خلال بعض هذه المراحل بسرعة . ولا يحتاج خطيب الحشد إلى استعمال خطط معينة ليجذب انتباه مثل هذه الجماعة إذا ما حصر نفسه فى الموضوع الذى يتناوله . وفى عملية التأثير المتبادل يكون الأعضاء قد أوصلوا أنفسهم إلى درجة كبيرة من القابلية للإيحاء . وهذه العملية تعد نوعاً من الإثارة المتبادلة التى تحدث من وجود الأعضاء وجهاً لوجه مباشرة . ولنذكر مثالاً لانتشار خبر ما بين أفراد الطائفة ، مثل حدوث جريمة جنسية ضد طفل ، حينئذ تجتمع الجماعة عند مكتب البريد لمناقشة الموضوع ، ويكون كل واحد ثائراً مضطرباً ، وكل فرد يزيد من انفعال الآخر ، ولكن للآن لم يتكون الحشد . وبالطريقة نفسها يمر حشد الطبقة ، كاتحاد عمال فى حالة إضراب مثلا خلال المرحلة الابتدائية للتحضير . ويصبح خطيب الحشد فى هذه المواقف أمام مستمعين فى حالة قابلية عليا للإيحاء سرعان ما ينجذبون إليه .

هذا ، وليس هناك أى صعوبة فى إظهار السلوك المعبر . فأى عبارة تتفق مع الشعور السائد تقابل بالهتاف والتصفيق ، وأى ذكر للعدو يقابل بالتصفير والعداء. هذا وفن تكوين الحشد فى المواقف الثلاثة متماثل فى سيكولوجيته فحسب ، لا من حيث السهولة التى يتم بها . فتحويل جمهور مستمع من جماعة جامدة إلى حشد يعتبر فنًّا ، أما الاستحواذ على انتباه الجماعة المتيقظة التى يؤثر كل فرد منها فى الآخر فعملية سهلة ، وإذا لم يفعله فرد ، فسيفعله آخر . وحشد الطائفة أو الطبقة يجد من يقوده .

حشد الطبقة :

إن لهذا النوع من الحشد تاريخاً طويلا أو فترة تحضير ، فأعضاء اتحادات العمال قد كان لهم خبرة بالإضرابات الماضية . ولقد اشترك الكثيرون منهم فى مظاهرات جرحوا فيها أو جرح بعض أصدقائهم . ولقد سجن بعضهم لوقوفهم حائلا دون من يقوم بالعمل وقت الإضراب . ولقد أدى الصراع والقمع إلى تعبئة الانفعال ، والإضراب معناه الحرمان من الأجور ، وهذا معناه الفاقة والعذاب . وكل شخص غير اتحادى يذهب إلى العمل أثناء الإضراب يجب أن يكره . وهكذا يتكون فى العامل خلفية من العداء والكراهية .

هذا ولا يكفى أن نشير إلى الحقيقة أن أعضاء الحشد فى هذه الحالة عندهم خلفية من القمع والتنظيم . فمن المهم أيضاً أن نرى كيف يعينون أسباب إخفاقهم . فانفعالاتهم تكون قوية جداً ضد غير الاتحاديين ، وضد الشركة ، وقد تكون موجهة أيضاً ضد الدولة . فإذا استمر العمال فى الإضراب ، فإن الشرطة تمنعهم من أن يحولوا دون من يعمل بالمصنع . فإذا حاول العمال أن يمنعوا هؤلاء بالقوة لجأت الدولة إلى القوات العسكرية لحماية الأرواح والممتلكات . ومن ناحية أخرى ، فإن تربية الفرد قد علمته أن يحترم الأرواح والممتلكات الخاصة ، وإننا نحصل على العدالة فى دور القضاء ، وأنه كفرد يجب أن يخضع لهذه الأوضاع القانونية .

وعملية الحشد فى هذا الموقف تصبح طريقة يتغلب بوساطتها الفرد على شكوكه حول طاعته للقانون ، وعلى اتجاهاته نحو الحياة البشرية ، وعلى خوفه من الشرطة والقوات العسكرية . إن « حشد الطبقة » بوجه عام هو ضربة ثورية موجهة ضد الدولة . وعن طريق الاستقطاب والتسير الاجتماعى ، يرتفع الشعب إلى درجة عالية من القابلية للإيحاء . وهكذا يصف أولبورت مجموعة من المضربين الذين قبضوا على نفر من العمال ممن حلوا محلهم فى العمل ، وساروا

بهم فى شوارع المدينة . فكلما تقدمت صفوف السير ، ازداد الشعور عنفاً . وأخيراً خاف القادة من الموقف ، ونصحوا هذا النفر من العمال غير الاتحاديين بالهروب ، فأخذت مؤخرة الحشد تطاردهم ، وحينما مرّوا بالقادة ، تحولوا هم أيضاً عن موقفهم الأول ، وتعقبوا هذا النفر إلى أن أشبعوهم ضرباً .*

الحشد كجمهور متعصب :

إن سيكولوجية الحشد فى جمهور متعصب قد تظهر طرقاً مماثلة لتلك التى تظهر فى حشد الطبقة ، ولكن هناك بعض نواحى الاختلاف . فهذا النوع ليس له عادة تاريخ للفشل أو الصد والحرمان . ومن الاتجاهات العامة الناشئة من تجارب الحياة يجب خلق انفعال عام مشترك وتوجيه مشترك خلقاً صناعياً . إن اتجاهات « الإثراء السريع » التى تظهر فى بعض تلك الحركات الجنونية مثل سلسلة الخطابات التى تدور حول العالم وتسمى "Chain Letters" وبعض المشروعات التجارية الخيالية مثل "Mississippi Bubble" ، "Tulipmania" "The Florida Land Boom" والمزادات إلخ . . . هذه لا يشعر بها الرجل المتوسط كاتجاهات تقمعها الدولة أو أى مؤسسة خاصة أخرى ، وهى اتجاهات قوية ذات قيمة انفعالية كبيرة لم تجد لها تعبيراً كاملا ، إذ أن للفرد العادى فرصة ضئيلة للإثراء السريع . ويطبق علم نفس الحشد على هؤلاء الناس لا للتغلب على ما هو مكبوت ولكن للتغلب على ذخيرة الشخص من الفهم السليم ولتجعله يتقبل اقتراحاً على أنه جيد ، وإن كان من الواضح أنه خاطئ منطقياً .

وينجح البعث الدينى بالطريقة نفسها لأنه يستطيع أن يستغل ذخيرة معينة من الاتجاهات الانفعالية القوية وجد توجيهاً عاماً لها . ونجاح البعث الدينى لا يمكن أن يرجع للصد والحرمان الذى يرجعه الناس لأوضاع خاصة ، بل يمكن إرجاعه للإخفاق والحرمان فى الحياة نفسها . فللأفراد المتعبين ، واليائسين ،

(*) هذا مثال طيب لطغيان الحشد على قادته فى بعض الأحوال . (المترجم)

والفاشلين عقلية قابلة للاستغلال . وأساس الاستغلال ليس التغلب على اتجاه وضع بقدر ما هو قهر للذكاء البشرى ، فالسكير يعتقد أنه إذا قبل الحياة المسيحية فهو سينقذ . وإن المتعبين والفاشلين يقبلون الفكرة بأنه بالوداعة والاستكانة يمكنهم أن يضمنوا السلام فى العالم الآخر .

فبقدر ما يكون الاستعداد الانفعالى لمثل هذه الجماهير مختلفاً أو ضئيلاً ، يزداد المجهود اللازم للوصول بهم من حيث القابلية للإيحاء إلى هذا القدر الذى يقتضيه تحقيق الهدف المطلوب . فصاحب الإنجيل يدرب على الطرق التى بها يجذب انتباه الناس ، وعلى التيسير الاجتماعى الذى يسهل الاستقطاب ، وهو غالباً يكون قد درب مساعدين لبعث نشاط الحشد .

سيكولوجية الحشد كطريقة فنية للتكامل :

فى الجمهور المتعصب يستغل أثر العمومية وعمليات الإسقاط الاجتماعى لغرض يختلف عنه فى حشد الطبقة ، إذ إنه فى هذه الحالة تستعمل هذه الطرق من سيكولوجية الحشد للسماح للفرد بتبرير الحالات أو الظروف التى تهيئ له الفرصة لعمل ما كان يتمنى عمله دائماً . ولكن فى الجمهور المتعصب تستعمل الوسائل الفنية لخلق حاجة جديدة فى الفرد . فضلا عن ذلك فإن الحاجة قد تكون غير عادية ووسائل إشباعها غريبة. هذه الوسائل الجديدة فى أى ظروف أخرى خلاف الظروف التى توجدها سيكولوجية الحشد ، تصبح منفرة جداً للفرد .

إن صاحب الدعوة الإنجيلية ينمى اتجاهات تقليدية فيما يتعلق بحياة الطفولة والأم والمنزل والأسرة . وهو ينمى الرغبة فى القناعة والراحة والأمن . ثم يشير إلى العقوبات التى يجرها الإثم والدعارة ، ويختتم بذكر الجزاء والرضا الذى ينشأ من التوبة الصادقة . كل هذه الاتجاهات لها قيمة انفعالية . ولكنها تحت تأثير سيكولوجية الحشد نجدها تصل إلى درجة من الشدة والقوة لم تكن معروفة قبل ذلك . إن السكير يوقع العهد ويبدو له أن هذا شيء معقول جداً . فإذا أضفنا

إلى ذلك أنه يغير بيئته حقيقة ، فإن هذا قد يبشر بتحول حقيقى . ولكن فى معظم الحالات يرجع الفرد لبيئته القديمة ، فتزول بذلك العوامل المثيرة فى سيكولوجية الحشد ، وسرعان ما يعود الفرد إلى أساليبه القديمة .

وكذلك عملية إنعاش سمسرة العقارات تنشأ عنها سلسلة من القيم الموجبة القوية. ففلوريدا مثلا هى أرض الرخاء، وهى تمثل مناخاً ملائماً للراحة والاستجمام ؛ فليس فيها مشكلة تدفئة ، أو شتاء قارس يحتاج لملابس شتوية . فمن المعقول أن يرغب كل شخص فى اقتناء قطعة أرض فى هذا المناخ . وينجح بائعو الأراضى فى إثارة حركة التوجه إلى فلوريدا وسرعان ما توزع الأنصبة فى كل اتجاه . وكل شخص يبدو أنه فى طريقه إلى فلوريدا ، فإنه يمكن جنى مبالغ طائلة من أرض فلوريدا . فتصبح سيكولوجية الإثراء السريع أقوى وأقوى . ويبدأ الكثيرون يعتقدون أنها ستدوم إلى الأبد .

الحشد كجماعة ساخطة :

إن حشد الطائفة يمثل نواحى تشابه بكل الحشد الطبقى والحشد المتحمس . وكما فى عادة الجمهور ، لا يوجد عادة تاريخ للكبت المنظم عن طريق عامل واحد . فالحروب التى تحدث على الحدود حيث تتخذ الجماعة خطوات عامة مشتركة ضد الهنود المهاجمين لا تعتبر حالات تمثل سيكولوجية الحشد بالرغم من وجود عناصر مشتركة بينها . إن اتجاه الجماعة فى الأفعال المضادة العنيفة تعتبر بصفة عامة داخلة فى نطاق سيكولوجية الحرب أكثر من سيكولوجية الحشد . ويبدو أن سيكولوجية الحشد داخل الجماعة أكثر تطبيقاً فى حالة نقض شخص أو أفراد قلائل جداً لشعائر الجماعة .

وينبغى أن يلاحظ أن الشعائر نفسها تمثل نواحى انفعالية لها قدسيتها وحرمتها ، ولو أن قلائل جداً من الأفراد فى الجماعة قد يعانون من نقض معين للدستور (لأنه ليس طفلهم هو الذى سرق أو ماشيتهم هى التى قتلت أو قريبهم هو الذى اغتيل) ، ومع ذلك فينظر إلى هذا الفعل كنوع من السلوك « الخاطئ » جداً .

ولأن هذه الحقيقة قد أدركت من أمد طويل ، فإنه توجد مؤسسات دستورية لتنفيذ العقوبة على المعتدين .

وسيكولوجية الحشد فى مثل هذا الموقف الجماعى ، تعمل لا على التغلب على الدولة ، أو اقتراح نوع جديد من السلوك الذى يتبع بدون تفكير ، ولكن للسماح للأفراد بتوقع العمليات الحكومية العادية ، وهم يعرفون أنه لا يسمح لهم بهذا عادة لأن القانون مؤاده حماية البرىء من القضاء الخاطئ . وكما فى حالة حشد الطبقة ، فإن الفرد لا يظهر فى سلوك الحشد . فبينما يكون الشعور العام عادة فى جانب القانون ، فإنه الآن يكون فى جانب سلوك الحشد . وفى إنجلترا حيث ينفذ القانون بسرعة ، فإن الجماهير من هذا النوع تكون أقل حدوثاً . والنواحى التى تبرر الحشد الطائش هى أن دور القضاء بطيئة ، والسياسيين فاسدون ، والموظفين غير أكفاء .

سيكولوجية الحشد كفشل لتقسيم العمل :

فى موقف الجماعة يمثل الحشد فشلا واضحاً لتقسيم العمل . وبخلاف الحشد الطبقى الموجه ضد الدولة ، فإنه ليس هناك شعور بأن المؤسسات الحكومية فى يد طبقة أخرى ، بل الشعور بأن المؤسسات الحكومية غير قادرة على تنفيذ إرادة الجماعة . وعليه فإن أفراد الجماعة يجب أن يأخذوا المسئولية على عاتقهم .

وفى بعض الحالات ، لا يوجد تنظيم خاص لعلاج أى خرق لدستور الجماعة . وكثير من الأحكام الأولى كانت حقيقة محاولة بدائية لوضع طريقة لمعالجة أى خرق لشعائر الجماعة .

سيكولوجية الحشد بصفة عامة :

على أساس التحليل السابق ، نجد أنه من الممكن التعليق على النظريات العامة فى سيكولوجية الحشد . وهكذا يهتم مارتن Martin كثيراً بمنطق الحشد وعنفه ، ولكنه لا يستطيع أن يفهم طبيعة كل منهما ، وهو يشعر أن جماعات الحشد مصابة

بالبارانويا بمعنى أنها فى نظره تبدو أنها تعكس أوهاماً منظمة تنظيماً منطقياً كهذيان العظمة وهذيان الاضطهاد .

منطق الحشد :

لا يوجد اختلاف أساسى بين منطق الناس فى اجتماع الحشد ومنطقهم فى أى ناحية أخرى . وهذه الحقيقة تبدو أنها من القوة فى نظر علم النفس الحديث ، وفى رأى باريتو Pareto وفرويد وغيرهم ، إلى درجة تجعلها لا تقتضى التعليق . إن الناس يفكرون تفكيراً علمياً فى الميادين المحدودة فقط ، ثم حين تتحدد أهدافهم . هذا ومنطق الناس فى التجمهر ليس هذياناً منظماً أكثر من الفلسفة الاقتصادية لعضو فى البرلمان . إن المبادئ المنطقية لأى جماعة هى فى أساسها تبريرات منظمة لحاجات أفراد الجماعة ورغباتهم ودوافعهم . وقلما تتكون الفلسفة العقلية للجماعة بطريقة موضوعية غير شخصية ، فلها المميزات الانفعالية التحكمية التى يجدها مارتن فى تفكير الحشد .

حالات الهذيان فى سيكولوجية الحشد :

نحن نعلم خاصتين من خصائص البارانويا هما : هذيان الاضطهاد وهذيان العظمة . وهنا نجد شيئين مماثلين لهما جداً فى سيكولوجية الحشد . إن هذيان البارانويا قائم على أسانيد كاذبة ، فالمصاب يسىء تفسير أفعال الناس على أنها موجهة ضده ، ويرجع فشله إلى مصدر ما قد لا يكون له شأن إطلاقاً بالموضوع الذى فشل فيه .

هذيان الاضطهاد :

يبدو أن مارتن يعتقد أن الحشد لا يكون عنده إطلاقاً أى سبب يستند إليه فى الاعتقاد بأنه مضطهد ، وأن هذا الاعتقاد يجب أن يكون دائماً هذياناً أو حكماً كاذباً . ونظراً لأن بعض الجماهير تسابق إلى الاعتقاد أن الشيطان عدوهم ، وسبب

نحسبهم ، بينما يعتقد البعض الآخر أن السحرة يفسدون محصولاتهم ، ويعتقد مارتن أن المستوطنين الأول كانوا واهمين جداً فى لومهم الهنود واتهامهم بحرق الخطوط الأمامية من القرى . وأن عبيد الإقطاع والطبقة البورجوازية الناشئة كانوا واهمين فى لومهم طبقة النبلاء على القيود التى وضعت لنشاطهم الاقتصادى ، وأن المظاهرات الحديثة المتصلة بالإضرابات لا شأن لها ولا تتصل بتصادم المصالح بين العمال والإدارة . ولأن بعض الجماهير لا تستطيع أن تحدد السبب الحقيقى لمصائبهم ، فإنه يفترض أن كلها تنقصها هذه القدرة .

ولمارتن بالطبع بعض الحق فى افتراضه هذا . إن راسم الكاريكاتير الذى يوقع لوم الفوضى الاقتصادية الحالية على تآمر أصحاب رؤوس الأموال إنما يشوه الصورة . فقليل منا يعرف حالات يسهر فيها أقطاب الصناعة فى الليالى لمحاولة إيقاع الظلم بالعمال . ولكن هذا لا يعنى أنه لا أساس فى العالم الواقعى للخلافات العنيفة بين رجال الصناعة واتحادات العمال . فضلا عن ذلك ، فإن جماعة تعانى الحرمان ستلوم دائماً الأفراد المخطئين أو « السياسيين » أو « الماليين فى وولستريت * » أو « الأجانب » وذلك قبل أن تصل إلى الجواب الصحيح لمشكلتها . نحن نعيش فى عالم اجتماعى معقد ، وقليل من الأفراد مدربون على رؤيته على حقيقته .

هذيان العظمة :

من الناحية الأخرى ، ينشأ هذيان العظمة من مصادر أخرى . وهو بلاشك يتصل بالنوع الذى سبق وصفه من سيكولوجية التجمهر . فالتيسير الاجتماعى ، وأثر الشعور العام ، والإسقاط الاجتماعى ، يبدو معها من الممكن أن أفراد التجمهر يستطيعون أداء أى شىء يريدون عمله . ولكن هناك احتياطاً لا بد منه . فى بعض

(*) وولستريت اسم شارع مشهور بكثرة البنوك ورجال الأعمال المالية (المترجم)

الأوقات يحتمل أن يكون صحيحاً أن مجموعة كافية من أفراد الحشد يمكنهم أداء ما يرغب أفراد المجموعة فى عمله . إن العقبات فى سبيل الأنواع الجديدة من السلوك الاجتماعى هى غالباً فى المعايير الاجتماعية السائدة أو فى اتجاهات الناس وعاداتهم . ومن ثم إذا كان عدد كاف منهم مستعدين لنبذ القيم القديمة ، فقلما يوجد ما يحول دون ذلك .

وبينما يُفترض أن هذيان العظمة فى البارانويا من شأنه أن يعوض شعوراً بالنقص ، فالشعور الواقعى لقوة جمعية كبيرة شىء مختلف جداً . فالموجة الكبيرة للمشروعات المنتجة التى أعقبت الثورة الفرنسية كانت مؤسسة على حقيقة واقعة . والطبقات المتوسطة التى وجدت قوة فى ذلك العصر ، صبغت العالم حقيقة بصبغة جديدة . إن الممر بين الخيال والحقيقة ، بين الوهم والواقع ، من الصعب كشفه .

أنواع الحشد المختلطة :

إن الدراسات التى تناولت المحاكمات الشعبية اللنشية * (lynching) التى قام بها الرعاع فى جنوب الولايات المتحدة تبين أنه ليس كل سلوك حشدى موجه ضد الزنوج فى الجنوب ينبع من دافع واحد . فنوع مثلا قريب جداً من حشد الطائفة من حيث إن الجماعة البيضاء المسيطرة تحاول المحافظة على امتيازاتها . ويسمى راپر A. Raper هذا النوع من المحاكمة بالنوع البوربونى [٦] Bourbon فالمواطنون القادة يشتركون فى المحاكمة لمعاقبة شخص معين على جرم معين ، ولا يفلت الغوغاء من الزمام . ومن الواضح أن الغرض هو تدعيم المعايير المتفق عليها للطائفة . ويوجد نوع آخر يسميه راپر بالحكم الشعبى أو حكم الطبقات الكادحة Proletariat وهذا يحدث فى الجهات التى يكون فيها فقراء البيض فى حالة منافسة اقتصادية مع الزنوج . فالاعتداء موجه بصفة عامة نحو كل الزنوج ، ويميل سلوك الحشد لأن يكون أكثر قسوة . فى هذا النوع من التجمهر

(*) انظر صفحة ٢٩٦ (المترجم)

نكون إزاء دوافع توجد فى كل من الحشد الطبّى، والحشد المتعصب ، ويكون الدافع بالنسبة لبعض أعضاء الحشد الذين يرون فى الزنوج سبباً لورطتهم الاقتصادية ، مماثلا للدافع فى الحشد الطبّى . وموقف التجمهر ، على أى حال ، لا يمثل بالنسبة لآخرين فرصة لإزالة الحالات أو الظروف المسئولة عن حرمانهم، ولكنه يكون فرصة لإطلاق عنان شعور محبوس من العداء والرغبة فى التعذيب تأصلت فيهم من مركزهم المحبط لآمالهم فى المجتمع الجنوبى .

المراجع المشار إليها فى الفصل

1. G. Le Bon, *The Crowd*. London : R.F. Unwin, 1917.
2. E.D. Martin, *The Behavior of Crowds*. New York, Harper and Brothers, 1920.
3. F.H. Allport, *Social Psychology*. Cambridge : Houghton Mifflin Company, 1924.
4. C.H. Woolbert, The audience, *Psychol. Monog.*, 1916, 21, No. 92.
5. H. Gurnee, *Elements of Social Psychology*. New York : Farrar and Rhinehart, Inc., 1936.
6. A. Raper, *The Tragedy of Lynching*. Chapel Hill : University of North Carolina Press, 1933.

مراجع عامة

Allport, F.H. *Social Psychology*. Cambridge : Houghton Mifflin Company, 1924.

Gurnee, H. *Elements of Social Psychology*. New York : Farrar and Rhinehart, Inc., 1936.

Hollingworth, H.L. *The Psychology of the Audience*. New York : American Book Company, 1935.

Le Bon, G. *The Crowd*. London : R.F. Unwin, 1917.

Martin, E.D. *The Behavior of Crowds*. New York : Harper and Brothers, 1920.

Woolbert, C.H., The audience, *Psychol. Monog.*, 1916, 21, No. 92.